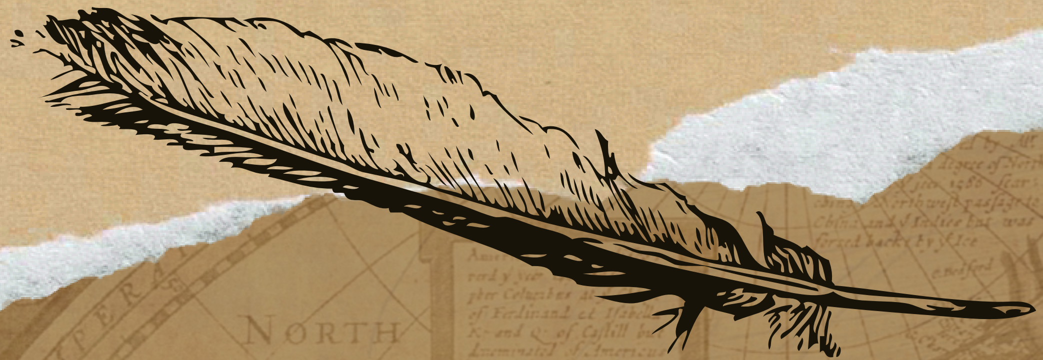




فضل العرب على الأوروبيين في مجال الملاحة البحرية



إعداد: أحمد ابن ربيع الحميدي الصبحي





سقوط الأندلس وأثره في نقل المعرفة



كان آخر عهد الحضارة العربية الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية سقوط غرناطة عام 898هـ / 1492م، حين سلّم أبو عبدالله الصغير، آخر أمراء الأندلس، مفاتيح المدينة إلى الملكَين الإسبانيّين فرناندو وإيزابيل، بعد حصار خانق أُغلقت فيه جميع سُبل النجاة عن أهلها. وللأمانة التاريخية، فإن هذا الأمير مظلوم في نسبة سقوط الأندلس إليه وحده، إذ جاء السقوط ثمرةً لتراكمات سياسية وعسكرية امتدت عقوداً. وقد قضى الإسبان بذلك على حضارة كانت منارةً علميةً للعالم في حقبتها، ولعل خير شاهد على ذلك ما لا يزال ماثلاً في اللغتَين الإسبانية والبرتغالية من مفردات عربية الأصل تجاوزت أربعة آلاف كلمة.

دور التراث العربي الأندلسي في نهضة الملاحة البرتغالية.

كان السبب الأول في تقدم البرتغاليين في علوم البحر والملاحة ما حملته الجاليات اليهودية المُهجّرة من الأندلس إلى البرتغال، من خرائط وعلوم جغرافية وجداول فلكية دقيقة، كانت في الأصل ثمرةً للعقل العلمي العربي الأندلسي. فتحت هذه المعارف للبرتغاليين أبواب حلمهم الكبير: السيطرة على تجارة المحيط الهندي. وكان العرب قد سبقوا الجميع في رسم الخرائط التفصيلية للبحار، شاملةً الخطوط الساحلية والمعالم البارزة وقياسات الأعماق وأنماط المد والجزر.

وقد تنوعت طرائق الملاحة عند العرب؛ فاهتدوا بالنجوم وحركاتها، وبمعالم البر وإشاراته، وعرفوا دلالات الطيور والصخور والشعاب، بل ورصدوا تيارات البحر وكائناته. ورغم أن البحارة العرب لم يكن تركيزهم على اكتشاف أراضٍ جديدة بقدر ما كان على التجارة والتواصل مع الشعوب، فإن معارفهم الملاحية ظلت الأوسع والأدق في عصرهم.

الإسهامات العلمية العربية في علم الملاحة

أسهم العلماء العرب إسهاماً جوهرياً في تطوير أدوات الملاحة البحرية؛ فقد طوّروا الإسطرلاب الذي يعود في أصله إلى اليونان القديمة، وأتقنوا تصميمه ووسّعوا نطاق استخدامه توسيعاً كبيراً. وكلمة "إسطرلاب" مشتقة من اليونانية: "astron" أي نجم، و"lambanein" أي يأخذ، فمعناها الحرفي "آخذ النجوم". كذلك طوّروا البوصلة البحرية والربعية، وهي أدوات مكّنت البحارة من الإبحار في المحيطات بدقة وأمان لم يُعهدا من قبل، مما مهّد الطريق لحقبة التفاعل الحضاري والتبادل المعرفي بين الشعوب.

ومن أبرز العلماء العرب الذين أثروا هذا الميدان: أبو عبدالله الإدريسي الذي أنجز خريطته الشهيرة "نزهة المشتاق" عام 1154م، وابن ماجد الملاح العُماني الذي لُقّب بـ"أسد البحر" وألّف كتاب "الفوائد في أصول علم البحر والقواعد"، وهو العمل الذي استفاد منه البرتغاليون استفادةً مباشرة. فضلاً عن ذلك، أسس العرب نظاماً دقيقاً لتوقيت المواسم الملاحية، عُرف بـ"علم الأنواء"، الذي حدّد أوقات الإبحار الآمنة وفق الرياح الموسمية في المحيط الهندي والبحر الأحمر.

الأهداف البرتغالية في التوسع البحري

لم تقتصر أهداف البرتغاليين على السيطرة التجارية، بل اقترنت بهدف ديني معلن وهو نشر النصرانية على السواحل الأفريقية. غير أن نشاطهم في غرب أفريقيا اقتصر في بادئه على إقامة موانئ وقلاع ساحلية، إذ لم يتوغلوا في الداخل، مما يكشف عن طابعهم الاستراتيجي الحذر. وكانت معلوماتهم البحرية قبل هذه الحقبة حبيسةَ البحر الأبيض المتوسط، أما المحيط الأطلسي فلم يعرفوا منه سوى شريطه الساحلي ومراكز صيد متفرقة. ولولا الإرث العلمي العربي الأندلسي لما استطاع سكان شبه الجزيرة الإيبيرية ارتياد المحيطات.

وقد كان الموريسكيون، أي المسلمون الذين بقوا في إسبانيا والبرتغال بعد سقوط الأندلس، حرفيين من الدرجة الأولى في صناعة السفن والملاحة، وشكّلوا نسبة كبيرة من الطواقم الفنية على ظهر السفن البرتغالية المبحرة شرقاً.



الكشوف الجغرافية والسطو على المعرفة العربية

لم تكن الخرائط والأدوات الملاحية وحدها ما استفاد منه البرتغاليون، بل امتد الأمر إلى أسلوب بناء السفن ذاته، المقتبس من المراكب العربية في سواحل الأندلس الغربية. وحين وصل فاسكو دا غاما إلى الهند عام 904هـ / 1498م على رأس أسطول من ثلاث سفن و160 رجلاً، كانت الخريطة التي يحملها مُعدّة من قِبَل ملاح من الشرق، تُبيّن موضع رأس الرجاء الصالح والبحر الأحمر والخليج العربي والطرق الملاحية إلى الصين وجزر الهند الشرقية. وكانت أهدافه ثلاثة: تطويق البلاد الإسلامية، ونشر النصرانية، والسيطرة على تجارة البهارات والعطور الهندية. وفي عام 937هـ / 1510م قصف دا غاما مدينة كاليكوت الهندية إثر رفض حكامها التعامل معه، وارتكب فيها مجازر بشعة بحق المسلمين، مما دفعهم إلى الاستنجاد بقانصوه الغوري، سلطان المماليك في مصر، الذي جهّز أسطولاً كبيراً ونازل الأسطول البرتغالي في معركة ديو الشهيرة عام 1509م على سواحل الهند الغربية، غير أنه لم يُحرز فيها نصراً حاسماً.

أفول الهيمنة البرتغالية

بعد أن انفرد البرتغاليون بالخطوط الملاحية العالمية قرابة قرن من الزمان، وحصّلوا ثروات طائلة من التجارة والاستعمار، بدأت إمبراطوريتهم البحرية تتداعى تحت ضربات القوى البحرية الأوروبية الناشئة، كهولندا وإنجلترا وفرنسا، التي سعت إلى كسر الاحتكار البرتغالي لطرق الملاحة إلى الهند ونجحت في ذلك مطلع القرن السابع عشر الميلادي. وهكذا دارت الدائرة على من بنى مجده على أكتاف المعرفة التي سطا عليها من غيره.

خاتمة

لا يمكن قراءة تاريخ الكشوف الجغرافية الكبرى قراءةً منصفةً دون الاعتراف بالدور المحوري الذي أدّاه العقل العربي في تأسيس علوم البحر والملاحة. فما كان لسفن البرتغاليين أن تشقّ المحيطات، ولا لخرائطهم أن تُرسم، ولا لأدواتهم أن تُضبط، لولا ما أرساه العلماء العرب من معارف متراكمة عبر قرون، في الفلك والجغرافيا وعلوم البحر.

غير أن المفارقة التاريخية المؤلمة تكمن في أن هذا الإرث المعرفي انتقل إلى الغرب في لحظة ضعف حضاري، حين تساقطت ثغور الأندلس واحدةً تلو الأخرى. فتحوّل العلم الذي بناه العرب إلى سلاح وُجّه ضدهم، وأداةً مكّنت القوى الأوروبية من الهيمنة على الطرق البحرية التي طالما كانت شريان حضارتهم.

إن استيعاب هذه الحقيقة التاريخية ليس ضرباً من الاعتزاز الانفعالي بالماضي، بل هو دعوة للتأمل في كيف تنتقل المعرفة بين الأمم، وكيف تصنع الحضارات أدوات نهوضها ثم تُهمل صونها، فتجد غيرها قد أفاد منها وتجاوزها.





المراجع



- صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، خلال القرن العاشر الهجري - غسان علي
- مجلة دراسات تاريخية: إسهامات العرب في النهضة الأوروبية الحديثة - محمد أحمد 2011
- تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر: قارة آسيا الجزء الأول 1492 -1980.
- محاضرات في المجتمع العربي 1961 فودة
- عالم المعرفة: الحضارة - دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها 1978
- مملكة الجبور وعلاقات البرتغاليين بالقبائل العربية الخليجية - سلمان محمد 2011
- Arab Cartographers -By Nakoa Rainfall · 2025